أبو الليث السمرقندي ومنهجه في تفسير بحر العلوم

د.رابح دوب

رئيس المجلس العلمي لكلية الآداب والعلوم الإنسانية–جامعة الأمير عبد القادر

ملخص

يهدف هذا البحث إلى التعريف بالسمرقندي وبتفسيره "بحر العلوم" وقد اتبع فيه مؤلفه منهج التفسير بالمأثور إذ قلما نجد اجتهادا برأيه في مسائل فقهية وعقدية وحتى لغوية.

Cette recherche a pour objet à la fois de faire connaître "ABOU EL-LEITH ES-SAMERKANDI" et faire connaître son interprétation du Coran dans son œuvre "BAHR EL-OULOUM" où son auteur a utilisé une méthode qui s'appelle "l'interprétation Par transmission "ET-TEFÇIR BIL-MATHOUR; car rarement où nous trouvons une interprétation personnelle, que ce soit autour des questions de foi, de jurisprudence (loi Islamique) ou autour des questions linguistiques

التعريف بمؤلف هذا التفسير :

هو نصر بن محمد بن إبراهيم الخطاب السمرقندي التوزي البلخي وقيل: نصر بن محمد بن أحمد (أو محمد)بن إبراهيم السمرقندي[1]

لقبه:

أ– الفقيه: وهو لقب اشتهر به. وهو يدل على أنه وصل من علم الفقه مرتبة عظيمة لا يدانيه فيها أحد من معاصريه .و يدل على ذلك "أل" المعرفة. فكأنه الفقيه وليس غيره.

وقد أحب أبو الليث هذا اللقب. تبركا به. لأن النبي صلى اللّه عليه وسلم لقبه به في المنام. وذلك أنه لمّا صنف كتابه " تنبيه الفاعلين " عرضه إلى روضة النبي – صلى اللّه عليه وسلم – وبات الليل. فرأى النبي – صلى اللّه عليه وسلم– فناوله كتابه فقال: خذ كتابك يا فقيه. فانتبه فوجد فيه مواضع محوه –صلى اللّه عليه وسلم– فكان يتبارك بهذا اللقب لذلك[2]

ب– إمام الهدى: وقد شاركه في هذا اللقب أبو منصور الماتريدي[3]

كنيتـه:

كني بأبي الليث، وقد طغت هذه الكنية على الاسم، حتى يكاد لا يعرف إلا بها، وقـد تذكر الكنية مصحوبة باللقب هكذا: (حدث الفقيه أبو الليث)

مولده: لم يعرف على وجه التحديد العام الذي ولد فيه أبو الليث، لأنهم لم يكونـوا يتوقعون أن يكون عالمـا ذا شأن، وإلا –وهـذا غيـب بحـث– لسجلوا مولـده. ولكنـهم ذكـروا –علـى وجه التقريب– أن مولده كان بين 301 و310 هـ.

وفاته: وكذلك اختلفت المصادر في تحديد سنة وفاته.

- **ذكر الداودي في "طبقات المفسرين" أن وفاته ليلـة الثلاثـاء لإحـدى عشـرة ليلـة خلـت من جمادى الأخيرة سنة 383 هـ[4]**
- **و قال صاحب الطبقات السنية في تراجم الحنفية أن وفاته كانت ليلة الثلاثاء سنة 383هـ**
- **و في تاج التراجم أن وفاته كانت سنة 375هـ[5]**
- **و في الجواهر المضيئة أن وفاته كانت ليلة الثلاثاء سنة 373 هـ[6]**
- **و في كشف الظنون ذكر حاجي خليفة أن أبا الليث توفي سنة 376 أو سنة375.**
- **و في تاريخ التراث العربي أن وفاته كانت من سنة 373 وقيل سنة 375 وقيل سنة 393.[7]**
- **و في معجم المؤلفين أنه توفي سنة 393.[8]**
- **و قال السيوطي: مات في أيام الطالع[9]**
- **أما كتاب " النوازل " ففيه أن وفاته كانت من جمادي الأخيرة ليلة الحادي عشر في سنة 396 –عن خمسة وخمسين عاما– وهذا التحديد يدلنا أيضا على العام الذي ولد فيه . أسرته: لم تذكر كتب التراجم شيئا عن أسرته، ولعله كان مـن أسـرة عاديـة، لم يـبرز منـها سـوى أبـي الليث وأبيه، الذي يعد أول شيوخه، فقد نقل عليه كثيرا سواء في التفسير وفي غيره.**

بيئته: سمرقند[01]: هي إحدى مدن خراسان، -كانت تتبع الاتحاد السوفيتي سابقا-، يقال لها بالعربية سران، مبنية على جنوب وادي الصفد، ومرتفعة عليه وهي مدينة عظيمة بمناخها، قال فيها الشاعر:

للناس من أخراهم جنة و جنة الدنيا سمرقند[11]

و كانت هذه المدينة قبلة طلاب العلم إذ رحل إليها العلماء والفقهاء والوعاظ والمتصوفة. وبذلك احتلت مكانة علمية مرموقة بين سائر البلدان الإسلامية، وإلى سمرقند نسب أبو الليث، وشاركه في هذه النسبة كثير من العلماء منهم:

- الحكيم السمرقندي.
- محمد بن أحمد السمرقندي.
- إسحاق السمرقندي.
- أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل السمرقندي.
- أبو نصر العياض السمرقندي.
- محمد بن عبد الجليل السمرقندي.
- محمد بن عثمان السمرقندي.

يقول ابن الأثير في اللباب: " بل إن الملوك أنفسهم كانوا يحبون العلم والتعلم، وكانوا أحسن الملوك سيرة، يرجعون إلى عدل ودين وعلم، فمنهم أحمد بن ساسان. وروى الحديث عن ابن عيينة، ويزيد بن هارون وغيرهما، وروى عنه ابنه الأمير إسماعيل". وكانت بلاد ما وراء النهر وخراسان – في عهد الدولة السامانية – مركز إشعاع للثقافة الإسلامية، فقد اهتمت الأسرة المالكة بالعلم والعلماء، لهذا صارت تلك البلاد" من أجلّ الأقاليم، وأكثرها أجلة وعلماء، معدن الخير، ومستقر العلم، وركن الإسلام المحكم، وحصنه الأعظم... فيه يبلغ الفقهاء درجة الملوك.[12]"

و كان التأليف ثمرة لهذا النشاط العلمي الواسع من بلاد ما وراء النهر وخراسان ولذا فلا غرو أن نجد هذا القرن زاخرا بالعلماء من شتى المجالات العلمية أثروا المكتبة العربية بغزير المؤلفات. وكان من أبرز هؤلاء العلماء: في مجال الحديث:

1.الإمام الحافظ النسائي (ت 303هـ) صاحب "السنن الكبرى" و"السنن الصغرى[13]"

2.الإمام أبو داود (ت 275 هـ) صاحب "السنن" أحد الكتب الستة.[14]

3.الإمام الترمذي (ت 279 هـ) صاحب "الجامع الصحيح" أحد الكتب الستة[15]

4.الإمام ابن ماجة (ت 273هـ) صاحب "السنن" أحد الكتب الستة[16]

5.الإمام الدرامي، صاحب "المسند" و"التفسير"[17]

في مجال التفسير:

1.أبو زيد البلخي (ت 322 هـ) له مؤلفات عديدة في علوم شتى منها غريب القرآن. ونظم القرآن. وغيرهما[18]

2.ابن قتيبة الدينوري (ت267 هـ) صاحب معاني القرآن، وإعراب القرآن وغيرهما.

3.أبو منصور الماتريدي (ت333هـ) من مؤلفاته تأويلات القرآن

في مجال الفقه: برز علماء كثيرون في بلاد ما وراء النهر وخراسان كان منهم: أبو الفضل البلخي (ت344هـ). أبو عبد الله الفقيه البلخي (ت305هـ).نصير بن يحي البلخي (ت267هـ).

منهج السمرقندي في تفسيره " بحر العلوم"

جمع أبو الليث في تفسيره بين التفسير بالمأثور والتفسير بالرأي، فجاء كتابه "بحر العلوم" مزيجا من النوعين.و قد عد بعض الباحثين [19] تفسيره هذا من التفسير الأثري معتمدين على فهم خاطىء لقول أورده في مقدمة تفسيره.

و ذلك أن أبا الليث قدم لتفسيره بمقدمة جعل عنوانها "باب الحث على طلب التفسير " وقال فيها[20] :".... "و لا يجوز لأحد أن يفسر القرآن من ذات نفسه برأيه ...". ففهم "آدم ميتز" من

ذلك أن السمرقندي يمنع كل تفسير بالرأي [21] .. ولعل مما أكد هذا الفهم عنده أن أبا الليث ساق عدة آثار تمنع التفسير بالرأي. فقد روى قول أبي بكر الصديق – حين سئل عن قول اللّه تعالى: " وَفَاكِهَةً وأبًا – "قال: أي سماء تظلني. وأي أرض تقلني إذا قلت في كتاب اللّه ما لم أعلم.

و كذلك روي أن رجلا قال لأبيّ: "هذا التفسير برأيك". فبكى وقال: إني. إذا لجريء. لقد حملت التفسير عن بضعة عشر رجلا من أصحاب النبي – صلى اللّه عليه وسلم. لكن ذلك لا يعفي "ميتز" من الخطأ في الفهم. أو التقول على أبي الليث.

فنص أبي الليث -كاملا- يناقض ما ذهب إليه "آدم ميتز" إذ يقول: "... ولا يجوز لأحد أن يفسر القرآن من ذات نفسه برأيه ما لم يتعلم ويعرف وجوه اللغة وأحوال التنزيل ..." إذا هو يضع الشروط التي ينبغي توافرها فيمن يقدم على هذا العمل. فإذا ما افتقدت هذه الشروط أو الأدوات فينبغي الابتعاد وإيثار السلامة. وهذا ما يفهم من الأثر الذي ساقه عن أبي بكر رضي اللّه عنه. فالحظر إنما هو مقصور على من لم يمتلك أدوات التفسير لأنه -حينئذ- سيقول دونما أساس من لغة. وفقه. وأسباب نزول – إلخ. و يكون تفسيره حينئذ تابعا لهواه.

التفسير واجب عند أبي الليث:

بل إن أبا الليث يعد تفسير القرآن الكريم من قبيل الواجب على من تملّك أدواته .و قد استدل لذلك بما ساقه بسنده عن ابن مسعود قال :"من أراد العلم فليثر القرآن" وفي رواية "فليثوّر القرآن فإن فيه علم الأولين والآخرين" ويورد آثارا أخرى عن الصحابة في ذلك ثم يعقّب عليها قائلا: "... ولأن اللّه تعالى أنزل القرآن هدى للناس. وجعله حجة على جميع الخلق بقوله تعالى: "وَأُوحيَ إليّ هذا القرآنُ لأُنْذِرَكُمْ بهِ وَمَنْ بَلغَ " [22]فلما كان القرآن حجة على العرب والعجم. ثم لا يكون حجة عليهم إلا بعد ما يعلم تفسيره فدل ذلك على أن طلب تفسيره وتأويله واجب." و في "بستان العارفين " تفصيل لذلك إذ يقول: "لأن القرآن حجة على الخلق. فلو لم يجز التفسير لا يكون حجة بالغة. فإذا كان كذلك جاز لمن عرف لغات العرب وعرف شأن

النزول أن يفسره. وأما من كان من المتكلفين ولم يعرف وجوه اللغة ،فلا يجوز له أن يفسره إلا بمقدار ما سمع فيكون ذلك على وجه الحكاية ،لا على سبيل التفسير فلا بأس به، ولو أنه تعلم تفسيره وأراد أن يستخرج من الآية حكما أو استدلالا بشيء من الأحكام فلا بأس به، ولو أنه قال: المراد من الآية كذا وكذا من غير أن يسمع فيه شيئا فلا يحل له هذا، وهذا الذي نهى عنه، ولو أنه سمع شيئا من بعض الأئمة فلا بأس بأن يحكي عنه [23] " ثم لماذا نستدل بالنصوص ونترك تفسير أبي الليث وهو نفسه فيه تفسير برأي مؤلفه ؟ أليس في ذلك ما يقطع كل سبيل أمام هؤلاء الذين يكذبون على الرجل !

التفسير بالمأثور عند أبي الليث:

قلنا – فيما مضى – إن التفسير بالمأثور: أي المنقول، سواء أكان متواترا أم غير متواتر. وعلى ذلك يشمل:

1. تفسير القرآن بالقرآن
2. تفسير الرسول للقرآن
3. تفسير الصحابة للقرآن
4. تفسير التابعين للقرآن

1.تفسير القرآن بالقرآن :

يقول السيوطي[24] : " قال العلماء: من أراد تفسير الكتاب العزيز طلبه أولا من القرآن. فما أجمل منه في مكان فسّر في موضع آخر ،و ما اختصر في مكان فقد بسط في موضع أخر ". وقد سار أبو الليث وفق هذا المنهج، فكان يبحث في القرآن عن تفصيل المجمل، وتوضيح المبهم، وتقييد المطلق ...إلخ.

فمثلا: يقول عند تفسير قوله تعالى: " وَالذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ ...."[25]، وهي البساتين التي تجري من تحتها الأنهار، وهي أربعة :نهر من ماء غير آسن،

ونهر من لبن لم يتغير طعمه. ونهر من خمر، ونـهر مـن عسـل مصفـى. وهـو بذلـك قـد لجـأ إلى القرآن الكريم في قوله سبحانه: "مَثَلُ الجنَّةِ التي وُعِدَ المُتَّقونَ فِيـهَا أَنْـهَارٌ مِنْ مَـاءٍ غَـيْرِ آسِـنٍ وَ أَنْـهَارٌ مِنْ لَبَـنٍ لمْ يَتَغَيَّرْ طعْمُـهُ وَأَنْـهَارٌ مـنْ خمْـرٍ لَـذَّةٍ للشَّـارِبينَ وَأَنهـارٌ مـنْ عسـلٍ مصفّى".[26] وفي تفسيره كثير من ذلك.

2. تفسير الرسول –صلى اللّه عليه وسلم– للقرآن:

وهو المصدر الثاني لتفسير القرآن الكريم، وذلـك: "أن أحسـن طريـق التفسـير أن يفسـر القـرآن بالقرآن، فما أجمل في مكان فقد فصل في موضـع آخـر... فـإن أعيـاك ذلـك فعليـك بالسنّة؛ فإنـها شارحة للقرآن، وموضحة له[27]"

قال سبحانه: "وَأَنْزَلْنَا إِليكَ الذّكرَ لتُبَيّنَ للنّاسِ ما نزّلَ إِليهمْ ولعَلّهمْ يتَفَكّرونَ"[28]

وعن مقداد بن معد يكرب: أن رسول اللّه– صلى اللّه عليه وسلم– قال ألا إنني أتيـت الكتـاب ومثله معه. ألا يوشك رجل شبعان متكىء على أريكته يقول: عليكـم بـهذا القـرآن ،فمـا وجـدتم فيه من حلال فأحلوه ،وما وجدتم فيه من حرام فحرموه،ألا لا يحل لكم الحمار الأهلـي، ولا كـل ذي ناب من السباع، ولا لقطة معاهد، إلا أن يستغنى عنها صاحبها. ومـن نـزل بقـوم فعليـهم أن يقروه، فإن لم يقروه فعليه أن يعقبهم بمثل قراه[29]

و قد التزم "أبو الليث" هذا المنهج القويم، فإذا لم يجد بغيته في القرآن لجـأ إلى السـنة يبحـث فيها عن طلبه. وقد أورد أبو الليث كثيرا من أحاديث الرسول - صلى اللّه عليه وسلم - يبيّـن بـها معنى لفظ، أو يفسر بها حكما من الأحكام القرآنية. أو يبيّن ما أشكل من القـرآن. فالسـنة زاخـرة بكثير من ذلك. ففي قوله تعالى: "يَا أَيّهَا الذِينَ آمَنُوا عَلَيكُمْ أَنْفُسَكُمْ"[30] ساق أبـو الليـث مـا روي عن الصديق أبي بكر أنه سئل عـن هـذه الآيـة فقـال: "إذا رأيتـم شـحا مطاعـا، وهـوى متعبـا ،و إعجاب كل ذي رأي برأيه فعليكم بخويصة أنفسكم ".

و روى عن عمرو بن جابر اللّخمي عن أبي أمية قال: سألت ثعلبة الخشني عن هذه الآية فقال: لقد سألت عنها خبيرا، سألت عنها رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال: يا ثعلبة، ائتمروا بالمعروف، وتناهوا عن المنكر، حتى إذا رأيت دنيا مؤثرة، وشحا مطاعا، وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بنفسك، فإن من بعدكم أيام الصبر، والمتمسك يومئذ بمثل الذي أنتم عليه له كأجر خمسين عاملا، فقالوا: يا رسول اللّه، كأجر خمسين عاملا منهم ؟

قال: بل كأجر خمسين عاملا منكم" [31]

و في تفسير قوله تعالى: "غَيْرِ المَغْضُوبِ عَلَيهِمْ ولاَ الضَّالِينَ" قال أبو الليث: "غير المغضوب عليهم" غير طريق اليهود .. "ولا الضالين" قال يعني ولا النصارى لم تحفظ قلوبهم. قال: وقد أجمع المفسرون أن "غير المغضوب عليهم " أراد به اليهود "ولا الضالين": النصارى، ثم يقول: فإن قيل أليس النصارى من المغضوب عليهم، واليهود أيضا من الضالين ؟ فكيف صرف المغضوب عليهم إلى اليهود، وصرف الضالين إلى النصارى ؟

قيل له: إنما عرف ذلك بالخبر، واستدلالا بالآية، فأما الخبر: فما روي عن رسول اللّه - صلى اللّه عليه وسلم - أن رجلا سأله وهو بوادي القرى من المغضوب عليهم ؟ قال: اليهود، ومن الضالين ؟ فقال: النصارى[32]

و من قوله تعالى: "قُلِ اللّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الكَلاَلَةِ..." [33] يقول: روي عن النبي - صلى اللّه عليه وسلم - أنه سئل عن الكلالة فقال: ألم تر إلى الآية التي أنزلت في سورة النساء "قُلِ اللّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الكَلاَلَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ ..." يعني تفسير الكلالة[34] . و بذلك أفاد أبو الليث من السنة النبوية في تفسير القرآن الكريم إفادة عظيمة.

3. تفسير الصحابة للقرآن :

و هو المصدر الثالث من مصادر التفسير، وذلك "أننا إذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السنة، رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة فإنهم أدرى الناس بذلك، لما شاهدوه من القرآن

والأحوال التي اختصوا بها. ولما لهم من الفهم التام والعلم الصحيح والعمل الصالح .و لا سيما علماؤهم وكبراؤهم. كالأئمة الأربعة. والخلفاء الراشدين. والأئمة المهتدين المهديين. وعبد اللّه بن مسعود - رضي اللّه عنهم-" [35]

و قد نقل "أبو الليث " في تفسيره كثيرا من أقوال الصحابة. وممن نقل عنهم: علي بن أبي طالب. وعمر بن الخطاب. وأبيّ بن كعب. وعبد اللّه بن عباس وجابربن عبد اللّه. وعبد اللّه بن الزبير. وعبد اللّه بن مسعود. وغيرهم. و يعدّ "عبد اللّه بن عباس " صاحب النصيب الأكبر والحظ الأوفر فيمن نقل عنهم أبو الليث. وقد روى عنه من عدة طرق:

طريق عكرمة عن ابن عباس. أو سعيد بن جبير عن ابن عباس. وقد أثنى علماء الجرح والتعديل على هذه الطريق. وأخرج منها ابن جرير وابن أبي حاتم كثيرا وأخرج الطبراني منها في معجمه الكبير[36].

طريق الضحّاك عن ابن عباس. وهي غير مرضية لأنها منقطعة. فالضحّاك لم يلق ابن عباس[37]

طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس. وهي أوهى الطرق. فالكلبي متّهم بالوضع[38]

وأحيانا يذكر "أبو الليث" الرواية عن ابن عباس مجردة من السند فيقول: "روي عن ابن عباس " أو "قال ابن عباس" [39]

- ابن مسعود:

و يأتي "ابن مسعود " في المرتبة الثانية - بعد ابن عباس - فيمن نقل عنهم أبو الليث. وطرق روايته عنهم متعددة. منها:

طريق مجاهد. وهي طريق صحيحة. اعتمد عليها البخاري في صحيحه.

و أحيانا يذكر الرواية عن ابن مسعود مجردة عن السند فيقول: "و روي عن ابن مسعود .

.و قد قصد أبو الليث إلى ترك السند قصدا. وكان يهدف من وراء ذلك التخفيف على الناس. حتى لا ينشغلوا بالسند عن التفسير نفسه[40]

4. تفسير التابعين للقرآن:

و هؤلاء التابعون تلاميذ كبار الصحابة، وتخرجوا من مدارسهم. وكان أبو الليث إذا لم يجد تفسيرا للصحابة رجع إلى أقوال التابعين، فنقل عنهم. ومن هؤلاء التابعين:

الحسن، وسعيد بن جبير، وعطاء، وعكرمة، ووهب بن منبه، والسدّي، ومقاتل، والكلبي، إلا أنه أكثر من الرواية عن مجاهد.

الإسرائيليات في تفسير أبي الليث:

تنبّه العلماء إلى ظاهرة غلبة الضعف على الرواية بالمأثور. ولم يكن أبو الليث بدعا من المفسرين، وإنما جاءت الإسرائيليات - في تفسير بحر العلوم - كثيرة. فمن أين جاء بهذه الإسرائيليات ؟ وقبل أن نجيب على هذا التساؤل نسوق تمهيدا موجزا في هذه القضية فنقول: نشأ الوضع في التفسير مع نشأته في الحديث.و كان مبدأ ظهور الوضع في سنة إحدى وأربعين من الهجرة، حين اختلف المسلمون سياسيا وتفرقوا شيعا وأحزابا. ووجد من أهل البدع والأهواء من روّجوا لبدعهم، وتعصبوا لأهوائهم، ودخل في الإسلام من تبطن الكفر والتحف الإسلام بقصد الكيد له، وتظليل أهله، فوضعوا ما وضعوا من روايات باطلة ،ليصلوا بها إلى أغراضهم الخبيثة.

و كان أهل الكتاب مصدرا من مصادر التفسير عند الصحابة، فكان إذا مر على قصة من قصص القرآن يجد من نفسه ميلا إلى أن يسأل عن بعض ما طواه القرآن منها ولم يتعرض له، فلا يجد من يجيبه على سؤاله سوى هؤلاء النفر الذين دخلوا في الإسلام. لكن الصحابة لم يسألوا أهل الكتاب عن كل شيء ولم يقبلوا منهم كل شيء، فلم يسألوهم عن شيء مما يتعلق بالعقيدة أو الأحكام، إلاّ إذا كان على وجه الاستشهاد والتقوية لما جاء به القرآن.و لم يسألوهم عن الأشياء التي يشبه أن يكون السؤال عنها نوعا من اللهو والعبث كالسؤال عن لون كلب أهل الكهف وما شابه ذلك.

"وكان الصحابة يعدون ذلك قبيحا من قبيل تضييع الأوقات وكانوا لا يصدقون اليهود فيما خالف الشريعة أو تنافى مع العقيدة " [41]

أقسام الإسرائيليات: وقد قسم العلماء الأخبار التي جاءت عن طريق أهل الكتاب إلى ثلاثة أقسام[42] :

القسم الأول: ما علمنا صحته مما جاء في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة. وهذا القسم صحيح، وفيما عندنا غنية عنه، ولكن يجوز ذكره وروايته للاستشهاد به، ولإقامة الحجة عليهم من كتبهم، وذلك مثل: تعيين اسم صاحب موسى -عليه السلام- وأنه الخضر، فقد ورد في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري[43]

القسم الثاني: ما علمنا كذبه مما يناقض شرعنا، أو لا يتفق مع العقل، وذلك مثل ما ذكروه في قصص الأنبياء مما يطعن في عصمتهم، ومثل ما ذكر في توراتهم أن الذبيح هو إسحاق وليس إسماعيل، وهذا القسم لا يصح قبوله ولا روايته.

القسم الثالث: ما هو مسكوت عنه، لا هو من قبيل الأول، ولا هو من قبيل الثاني. وهذا القسم نتوقف فيه فلا نؤمن به ولا نكذبه لاحتمال أن يكون حقا فنكذبه، أو باطلا فنصدقه، وذلك لقول الرسول -صلى الله عليه وسلم-: " لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إليكم"[44]

أبو الليث والإسرائيليات:

و هذه الأقسام الثلاثة دخلت التفسير الأثري بعامة، ولم يكن أبو الليث نسيجا وحده في ذلك، فساق في تفسيره من هذه الأقسام. و لو أنه بعد ما ساق هذه الإسرائيليات عقب عليها لما كان عليه ضير، إلا أنه أوردها دون ما تعقيب. فهو ينقل عن ابن عباس حكاية عن أهل الكتاب، ومقال ذلك ما جاء في تفسير قوله تعالى: " فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه «... فذكر ما موجزه: أن إبليس حسد آدم على ما فيه من نعمة، فاحتال لإخراجه منها، حتى دخل في صورة الحية، ثم أتى باب الجنة ونادى آدم وحواء " ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين " يعني هذه شجرة الخلد، فأكلا منها.

و يقال: إن حواء قالت لآدم: تعال حتى نأكل من هذه الشجرة. وظلت به حتى أكل بعد أن سبقته بالأكل.[45] و أحيانا يقول: قال بعضهم. ويذكر الرواية الإسرائيلية في ذلك. وخطورة هذا تكون بالغة إذا ما كانت من القسم الثاني. ففيه طعن في عصمة الأنبياء. و في "بحر العلوم" طائفة من هذا القسم[46]

و من مصادر الإسرائيليات في تفسير أبي الليث -إضافة إلى ما سبق- قراءته التوراة. وقد صرح بذلك في التفسير في عدة مواضع. يقول في قوله تعالى: " وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ " أي حاضت. يقال: ضحكت الأرانب إذا حاضت، وغيره من المفسرين يجعله الضحك بعينه. وكذلك هو في التوراة. قرأت فيها: أنها حين بشرت بالغلام ضحكت في نفسها وقالت: من بعد أن بليت أعود شابة! و من مصادرها أيضا: سماعه أهل التوراة. ويصرح بذلك أيضا حين يسوق هذه العبارة " سمعت أهل التوراة يقولون...".

ثم روايته عن المتهمين بالوضع والضعف كعكرمة. والضحاك. ومقاتل. ووهب ابن منبه وغيرهم. و كان شأن أبي الليث في ذلك شأن سائر المفسرين. غير أن هذا لا يعفيهم من المسؤولية عن ذلك. وكان ينبغي عليهم – وأبو الليث أحدهم – أن يدققوا ويمحّصوا. وقد شاء الله عز وجل أن يدرك المسلمون أخيرا هذا الخطر. فتداعى علماؤهم إلى تجريد كتب التفسير من هذه الإسرائيليات. وتطهيرها من كل دخيل[47] .

المنهج اللغوي في تفسير أبي الليث:

تتضح أهمية اللغة ومكانتها في تفسير القرآن الكريم في نظر أبي الليث من قوله: " ولا يجوز لأحد أن يفسر القرآن برأيه ما لم يتعلم ويعرف وجوه اللغة وأحوال التنزيل..." إنها أداة أصيلة وركن ركين ينبغي توافره فيمن يتصدى للتفسير.

و بالتأمل في تفسير أبي الليث نلاحظ ما يلي:

أولا: يبحث أبو الليث في معنى اللفظ في القرآن الكريم من خلال نظائره وسياقاته المختلفة. ففي تفسيره لقوله سبحانه: "رَبِّ الْعَالَمِينَ " يقول: قال ابن عباس: سيد العالمين. والرب في اللغة: هو السيد، قال الله تعالى: » ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ ... « يعني سيدك.

ثانيا: إذا لم يجد في القرآن معنى للفظ يرجع إلى استعمال العرب القدماء ويستشهد بالشعر على المعنى الذي يورده.

ففي تفسير اسم الجلالة الله في البسملة يقول: و قيل: إنما سمي "الله" لأنه لا تدركه الأبصار، ولاه: معناه احتجب، كما قال القائل:

لاه ربي عن الخلائق طرا خالق الخلق لا يرى ويرانا

ثالثا: أفاد أبو الليث كثيرا من علماء اللغة كابن قتيبة، والأصمعي، وقطرب، والزجاج، والفراء، والخليل بن أحمد وغيرهم فكان يذكر القول منسوبا إلى واحد منهم أو أكثر.

رابعا: قد يذكر القول دون ذكر قائله هكذا: "قال أهل اللغة..." أو " قال بعض اللغويين..." ولم يكتف "أبو الليث" بالنقل، وإنما كان - في بعض الأحيان- يرجح رأيا على رأي.

خامسا: أفاد أبو الليث من علم الأبنية المسمى بعلم " الصرف" فكان يذكر -وقت الحاجة- وزن الكلمة، أو اشتقاقها... الخ.

سادسا: أدرك أبو الليث ما للنحو من أهمية في فهم معاني القرآن إذ " أن الإعراب يميز المعاني" فكان يورد بعض المسائل النحوية الخفيفة، ولا يتعمق فيها، ولا يورد اختلافات النحاة حتى لا يشغل القارئ في خضم النحو ويخرجه من حيز التفسير مثال ذلك:

ما جاء في تفسيره قول الحق سبحانه: " حَذَرَ الْمَوْتِ" إذ قال: يعني لحذر الموت، والكلام ينصب لنزع الخافض مثل قوله: " واخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ..." أي من قومه فكذلك هاهنا.

المنهج البلاغي في تفسير أبي الليث:

يمكن أن نقول إن المنهج البياني هو أحد المناهج الكثيرة في تفسير القرآن الكريم وأن جذور هذا المنهج قد وجدت منذ زمن الرسول – صلى الله عليه وسلم– ثم تأصل عند ابن عباس وتلاميذه إلى أن جاء علماء كبار فقعدوا هذا المنهج.

وقد أفاد أبو الليث في تفسيره من العلماء الأفذاذ الذين أسهموا بسهم وافر في هذا المنهج، ويأتي على رأس هؤلاء "أبو عبيدة" صاحب مجاز القرآن فقد نقل أبو الليث كثيرا من أقواله [48] وتأثر بمنهجه أيضا. ففي تفسير قوله تعالى: " ولاَ تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّن النِّسَاءِ ..." [49] وقف أبو الليث عند الآية وحللها تحليلا بيانيا يدل على ذوقه وحسه المتميز.

كما نقل عن الزجاج صاحب معاني القرآن كثيرا، وأفاد من ابن قتيبة إفادة عظيمة من خلال كتابه " تأويل مشكل القرآن" فيقول: قال القتبي [50].

ثم يمضي قائلا في تفسير الآية: " ولاَ تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّن النِّسَاءِ إلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً ومَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلاً".

يعني لا تتزوجوا من قد تزوج آباؤكم من النساء. ويقال اسم النكاح يقع على الجماع والتزوج، فإن كان الأب تزوج امرأة أو وطئها بغير نكاح حرمت على ابنه.

و قوله " إلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ" يقول: لا تفعلوا ما قد فعلتم في الجاهلية، وكل الناس يتزوج الرجل منهم امرأة الأب برضاها، بعد نزول قوله: " لاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا" حتى نزلت هذه الآية: " ولاَ تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم..." فصار حراما في الأحوال كلها. ويقال: إلا ما قد سلف، يعني: ولا ما قد سلف، كقوله تعالى: " وما كانَ لِمُؤمنٍ أَنْ يقتُلَ مؤْمِنًا إِلاَ خطَأً " ولا خطأ وقد قيل: إن في الآية تقديما وتأخيرا ومعناه: ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء فإنكم إن فعلتم تؤاخذون وتعاقبون إلا ما قد سلف إنه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا، إلا ما قد سلف. وقد قيل: إن في الآية إضمار تقول "و لا تنكحوا ما نكح آباؤكم " من النساء فإنكم إن فعلتم تعاقبون

وتؤاخذون إلا ما قد سلف. ثم قال " إنه كان فاحشة " أي معصية " ومقتا " أي بغضا " وساء سبيلا " أي بئس المسلك[51].

و من الأمثلة أنه أحيانا يذكر الوجه البلاغي، ولا ينسبه إلى قائله، وإنما يقول: " قال بعضهم " أو يذكر الوجه البلاغي الذي يراه هو بداية دون الرجوع إلى السابقين ففي قوله تعالى: " فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ " [52] يقول: " قال بعضهم: هذا على سبيل المثل. ثم يعقب بما يدل على ذوقه الخاص قائلا: والعرب إذا أرادت تعظيم ملك عظيم العطية تقول: كسف القمر لفقده، وبكت الريح والسماء والأرض وقد ذكروا ذلك في أشعارهم، فأخبر تعالى أن فرعون لم يكن ممن يجزع له جازع، ولم يوجد له فقد" [53]

يقول في تفسير قوله تعالى: " فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ" قال بعضهم: " فما بكت عليهم السماء والأرض" يعني أهل السماء، وأهل الأرض فأقام السماء والأرض مقام أهلها كما قال " وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ" وقال بعضهم يعني بكت السماء بعينها، وبكت الأرض، وقال ابن عباس " لكل مؤمن باب في السماء يصعد فيه عمله، وينزل منه رزقه فإذا مات بكى عليه بابه في السماء وبكت عليه آثاره في الأرض" وذكر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه سئل :أتبكي السماء والأرض على أحد؟ قال: نعم إذا مات المؤمن بكت عليه معادنه من الأرض التي كان يذكر الله تعالى فيها، ويصلي، وبكى عليه بابه الذي كان يرفع فيه عمله، فأخبر الله تعالى أن قوم فرعون لم تبك عليهم السماء والأرض [54] " وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ" يعني مؤجلين.و يقول في تفسير قوله تعالى: " أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ.." [55] والمطر: هو القرآن، لأن المطر حياة الخلق وإصلاح الأرض، وكذلك القرآن فيه هدى للناس، وبيان من الضلالة وإصلاح للأرض، فلهذا المعنى شبه القرآن بالمطر. والظلمات هي المكائد والمحن التي تصيب المسلمين والشبهات التي في القرآن. والرعد هو الوعيد الذي ذكر للكفار والمنافقين في القرآن. والبرق ما ظهر من علامات نبوة محمد – صلى الله عليه وسلم– وملائكته.

و من إشاراته البلاغية اللطيفة تحليله لقوله تعالى: " إن الله لا يستحيي أن يضـرب مثـلا مـا بعوضة فما فوقها فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم وأما الذين كفروا فيقولون مـاذا أراد الله بهذا مثلا يضل به كثيرا ويهدي به كثيرا وما يضل به إلا الفاسقين" (56).

يقول السمرقندي: وذلك أنه لما نـزل قـول الله تعـالى: " إ ن الذ يـن تدعـون مـن دون الله لـن يخلقوا ذبابا" وقال في آية أخرى: " مثل الذ ين اتخذوا من دون الله أ وليـا ء كمثـل العنكبـوت ". قالت اليهود والمشركون: إن رب محمد يضرب المثل بالذباب والعنكبوت. فنزلت هـذه الآيـة: "إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها" أي لا يمتنـع مـن ضـرب المثـل وبيـان الحق بذكر البعوضة وبما فوقها. ويقال لا يمنعه الحياء أن يضرب المثل ويبين ويصف للحق شبها. " ما بعوضة فما فوقها": يعني بالذباب والعنكبوت. وقال بعضهم: فما فوقها أي بما دونها في الصغر. وهذا من أسماء الأضداد يذكر الفوق ويراد به دونه كما يذكر الوراء ويراد به الأمام. مثل قولـه: " ويذرو ن وراءهم يو ما ثقيلا" أي أمامهم. فكذلك الفوق ويراد ما دونه أي يضرب المثل بالبعوضـة وبما دونها بعد أن يكون فيـه إظـهار الحـق وإرشـاد إلى الهـدى. فكيـف يمتنـع مـن ضـرب المثـل بالبعوضة ولو اجتمعت الإنس والجن على أن يخلقوا بعوضة لا يقدرون عليه.

و يقال إنما ذكر المثل بالبعوضة، لأن خلقة البعوضة أعجب، لأن خلقتها خلقة الفيل.

و يقال: لأن البعوضة مادامت جائعة عاشت فإذا شـبعت مـاتت. فكذلـك الآدمـي إذا اسـتغنى فإنه يطغى فضرب الله المثل للآدمي " (57).

و نلاحظ كيف استطاع السمرقندي بقدرة فائقة وحـس بلاغـي مرهـف أن يسـقط هـذا التمثيـل الذي ضربه الله عز وجل للجاحدين علـى الآدمـي. وفيـه إشـارة واضحـة لمطابقـة التشـبيه لمقتضـى الحال. وبهذا التحليل الشـيق يضـع يـده علـى خصـائص التمثيـل القرآنـي الـذي يصيـب الغـرض المطلوب على عكس كثير من تشبيهات العرب الـتي لا تراعـي مقتضـى الظـروف الفعليـة للمشـبه والمشبه به.

و بمنهج السمرقندي الموازن بين الآيات التي تتضمن مثل هذا النوع من التمثيل يكون قد وضع اللبنة الأولى لهذه الدراسة البلاغية التي أحكم قواعدها فيما بعد ابن ناقيا البغدادي (ت485هـ) إذ طبق دراسته في فن التشبيه على ست وثلاثين سورة من القرآن الكريم [58]

كما يشير السمرقندي إلى المجاز لكن دون أن يسميه وذلك عند تحليله لعدة آيات ومنها قوله عز وجل: " إِنَّ الذينَ يأكلُونَ أَمْوَالَ اليَتَامى ظلْمًا إِنّمَا يأْكُلُونَ فِي بطُونِهِمْ نارا وسَيَصْلَوْنَ سعِيرًا" [59]

يقول أبو اليث في تفسيره هذه الآية: " يعني بغير حق أي حراما لأن الحرام يوجب النار فسماه الله باسمها" [60] وهذا ما أطلق عليه البلاغيون بعد ذلك المجاز المرسل وعلاقته المسببية بأن نطلق لفظ المسبب ونريد به السبب. فالنار هنا مسببة عن أكل السحت من مال اليتامى ظلما [61]

ونجده في موضع آخر يصرح بالمجاز لفظا في تفسيره لقوله تعالى في سورة الكهف: " فانطَلَقَا حتّى إذَا أَتِيَا أَهْلَ قرْيَةٍ استَطْعَمَا أَهْلَهَا فأَبَوْا أنْ يضِيّفوهمَا فوَجَدَا فيها جدَارا يريد أَنْ ينْقَضَ فأَقَامَهُ قالَ لو شئتَ لاتّخذْتَ عليهِ أجْرًا" [62]

يقول أبو اللّيث : " وهذا كلام مجاز لأن الجدار لا يكون له إرادة. ومعناه: كاد أن يسقط " [63] فهو بهذا التحليل يتبع ما قاله ابن قتيبة وأبو عبيدة من قبله بل يرتكز على هذه العبارة ليؤكد أن القرآن الكريم لا يخلو من المجاز كما زعم بعض منكريه.

لكن كثيرا ما يفوت السمرقندي ما في الآيات الكريمات من مجاز فلا يشير إلى ذلك أبدا [64] خاصة عند تفسيره لقوله تعالى: " وإذْ قالَ ربُّكَ للملائكَةِ إِني جاعلٌ في الأرْضِ خليفةً. قالوا أَتَجْعَلُ فيها مَنْ يفْسِدُ فيها ويسْفِكُ الدّمَاءَ، ونحْنُ نسَبحُ بحَمْدِكَ ونقَدِسُ لكَ. قالَ إِني أَعلمُ ما لاَ تعْلَمُونَ" [65].ففي الآية الكريمة خروج الاستفهام في قوله تعالى " أتجعل فيها " إلى معنى مجازي وهو استخبار من الملائكة لربها بمعنى أعلمنا يا ربنا.

لكن السمرقندي يمر على هـذه الآيـة دون أن يشير إلى هـذا الاستفهام إطلاقـا، بـل يقـول في تفسير قوله تعالى: " أتجعل فيها" يعني أتخلق فيها[66].

و قد يمر السمرقندي على العديد من الصور البيانية دون أن يقف عندها ويحللها مثل تفسيره لقوله عز وجل: "والليْلِ إِذَا عسْعَسَ وَالصبْحِ إِذَا تنَفَسَ " [67].

يقـول: "والصبـح إذا تنفـس يعـني إذا اسـتضاء وارتفـع ويقـال إذا امتـد حتـى يصـير النـهار بيّنا"[68].

و قد فات السمرقندي أن في هذه الآية الكريمة استعارة مكنية على الرغـم مـن أنـها مشـهورة جدا. فقد أشار إليها من قبل معاوية بن أبي سفيان عندما سئل عن الشيء الـذي يتنفـس مـن غير روح فأجاب: "والصبح إذا تنفس "[69].

و كذلك عدم إشارته للكناية المشهورة في قوله عز وجل: " ولَـا سقِطَ في أَيْدِيـهِمْ ورَأَوْا أَنـهُمْ قدْ ضلُوا قالوا لئِنْ لمْ يرْحَمْنَا ربّنُا ويغْفِرْ لنَا لنَكُونَنَ منَ الخاسرينَ"[70].

يقول أبو الليث: "يعني ندموا على ما صنعوا يقال سقط في يـده إذا نـدم وأصلـه أن الإنسـان إذا ندم جعل يده علـى رأسـه"[71] و في تفسـيره هـذا إشـارة خفيفـة إلى الكنايـة لكـن دون أن يسـميها باسمها. كما أن من عادة العرب أن تقول للندمان (سقط في يده) أي جعـل فمـه في يـده تعبـيرا عـن شدة الندم. أما قول السمرقندي بأن الإنسان إذا ندم جعل يده على رأسـه، لا يطـابق معنـى الآيـة هنا لأن من عادة الإنسان إذا ندم يضع يده في فمه كما أشار إلى ذلك القرآن الكريم في قوله تعـالى: " ويومَ يعَضُ الظالمُ علَى يديهِ يقُولُ يا ليْتَنِي اتّخَذْتُ معَ الرّسُولِ سبيلاً "[72]، وهذا كنايـة عـن شدة ندم الكافر يوم القيامة.

و لعل الخلاصة التي يمكن أن نخرج بها. هـي أن تفسـير السـمرقندي في حقيقتـه هـو مجـرد اختصار لتفسير جامع البيان للطبري (ت 310هـ).

[1]بحر العلوم للسمرقندي تحقيق الشيخ علي محمد معوض. والشيخ عادل أحمد عبد الموجود.

(2)كشف الظنون حاجي خليفة ج1 ص187. وطبقات المفسرين للداودي ج2 ص245 ، وتاريخ التراث العربـي فـؤاد سزكين ج2 ص97 .معجم المؤلفين 13ج ص91 الأعلام ج 8ص348.

(3)شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ص126

(4) المصباح المضيء لابن جديدة ج3 ص360

(5) بحر العلوم ج1 ص 51

(6) المصدر نفسه

(7) المصدر نفسه ج3 ص196

(8) كشف الظنون ج2 ص187

(9)المصدر نفسه

(10) تاريخ الخلفاء للسيوطي ص411

(11) بفتح السين والميم. هكذا ضبطها ياقوت، أما البكري فقد فتح السين وسكن الميم

(12)معجم البلدان ج5 ص121

(13)أحسن التقاسيم للمقدسي ص260

(14)الأعلام للزركلى ج 1 ص 164

(15)وفيات الأعيان ج 1 ص 214

(16)المصدر نفسه ج1 ص 484

(17)الأعلام ج8 ص15

(18)طبقات المفسرين للحافظ الذهبي ج1 ص235

(19) الأعلام ج 1 ص 131

(20) بحر العلوم ج1 ص 50

(21)المصدر نفسه ج1 ص72 -73

(22)الأنعام 19

23 بستان العارفين ص 47

(24) الإتقان ج 1 ص 175

[25] النساء 57

[26] محمد 15

[27] البرهان في علوم القرآن للزركشي ج2 ص175

[28] النحل 44

[29] رواه أبو داود في السنن

[30] المائدة 105

[31] بحر العلوم ج1 ص463

[32] المصدر نفسه ج1 ص83

[33] النساء176

[34] بحر العلوم ج1 ص 408

[35] تفسير بن كثير ج 1 ص10 وما بعدها

[36] الإتقان ج 2 ص 188

[37] المصدر نفسه

[38] المصدر نفسه ج1 ص85

[39] بحر العلوم ج 1 ص 48

[40] بستان العارفين ج1 ص3

[41] التفسير والمفسرون للذهبي ج 1 ص 169 وما بعدها

[42] الإسرائليات والموضوعات لأبي شهبة ص 150 وما بعدها

[43] فتح الباري ج 8 ص 297

[44] بحر العلوم جـ 1 ص 55

[45] المصدر نفسه

[46] المصدر نفسه ـ مواضع كثيرة

[47] التفسير والمفسرون ج 1 ص 199

[48] بحر العلوم – مواضع كثيرة

(49) النساء 22

(50) بحر العلوم – مواضع كثيرة

(51) المصدر نفسه ج 1 ص 343.

(52) الدخان26

(53) بحر العلوم ج 1 ص 218.

(54) ذكره السيوطي في الدر المنثور ج 6 ص 30 وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والبيهقي في شعب الإيمان.

(55) البقرة 19.

(56) البقرة 26.

(57) بحر العلوم ج1 ص 104

(58) الجمان في تشبيهات القرآن ابن ناقية البغدادي

(59) النساء 10

(60) بحر العلوم ج1 ص 335

(61) علوم البلاغة أحمد المراغي ص 237.

(62) الكهف 77.

(63) بحر العلوم ج 2 ص 308

(64) المصدر نفسه ج 2 ص 173 وغيرها

(65) البقرة 30

(66) بحر العلوم جـ 1 ص 108

(67) التكوير 17–18

(68) بحر العلوم جـ 3 ص 453

(69) جامع البيان جـ 30 ص79

(70) الأعراف 149.

(71) بحر العلوم ج 1 ص 571

(72) الفرقان 27